39 الشخصية الإسلامية: نموذج وتربية

محمود قمبر

أستاذ ورئيس قسم أصول الدين - جامعة قطر.

❖ أبحاث مؤتمر المناهج التربوية والتعليمية في ظل الفلسفة الإسلامية، والفلسفة الحديثة، (القاهرة، 29–31 يوليو 1990).

❖ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بالتعاون مع الجمعية العربية للتربية الإسلامية 1414هـ/1994م، ص315–387 [73 صفحة من القطع المتوسط].

❖ أصل البحث (الكتاب): اللغة العربية.

❖ مجال البحث (الكتاب) : الشخصية الإسلامية – نظرية في بنائها، التربية الإسلامية.

❑ ❑ ❑

يبدأ الباحث بتوجيه رسالته للمعنيين بإنشاء المدارس الإسلامية في هذا العصر لكي يعطوا عناية كبيرة بتربية الشخصية الإسلامية في مدارسهم، فهو يرى أن الواقع الحالي للأمة يشير إلى تحلل شخصيتها - أي الأمة -، من غير عقيدة تشدها إلى الله وتمكّن لها في الأرض. . . ، «لم يعد لها عقل يبدع أو يفكر، ولا يد تعمل وتنتج، ولا قوة تصون وتحمي».

من هذه النظرية التشاؤمية، أو ربما التشخيصية، لواقع الأمة المسلمة ينطلق الباحث محاولاً رسم ملامح الشخصية المسلمة أو الإسلامية التي يجب أن نربي أولادنا وأجيالنا عليها.

* يبدأ الباحث بالمفاهيم الحديثة للشخصية محاولاً عرض مدارس ومنظورات علم النفس المعاصر في الشخصية، ويخلص إلى أن لمنهجية علم النفس المعاصر موقفين فيما يتعلق بدراستها للشخصية:

- دراسة الشخصية ككل جامع لغرض الوصف والتنبؤ.
- دراسة الشخصية في بعض جوانبها أو في بعد واحد من أبعادها.

ثم يقوم الباحث بنقد كل من هذين الموقفين من وجهة نظر إسلامية.

* بعدها يقوم الباحث بعرض تصور للشخصية من خلال نصوص التراث

الإسلامي في هذا المجال وتحت باب ما أسموه (بالإنسان)، لأن الشخصية مصطلح حديث حتى في الدراسات الأوربية.

ويرى الباحث أن العلماء المسلمين في تناولهم للإنسان قد أحاطوه بنظرية شمولية تتكامل بها الأبعاد البيولوجية والسيكولوجية والأخلاقية والدينية والاجتماعية والتربوية، مما يساعد كثيراً على اكتشاف علمية هذا التصور عند مقارنته بالتصورالحديث من جهة، والى محاولة رسم إطار جديد للشخصية الإسلامية المعاصرة من جهة ثانية.

* يبدأ الباحث بنقل النصوص التراثية عن ثنائية الإنسان في تركيبته (كمجموع مركب من النفس والبدن) مارأ باستشهادات عدة للإمام الغزالي وأبي حيان التوحيدي وإخوان الصفا: ليس في مجال الثنائية حسب وإنما في مراحل نمو الإنسان كذلك. ويرى الباحث أن قوة النفس تتدرج في ترتيب تكاملي، فتنمية القوى الطبيعية أو المادية إشباع لحاجات الإنسان الوجودية. وهذا شرط أول لوجود النفس، وإشباع حاجاتها من جهة أخرى شرط ضروري لوجود العقل الموظف لترقية الحياة وخدمة نظامها.

كما يشير الباحث إلى اختلاف النظرية الإسلامية لهذه الثنائية - وخاصة النظرية المادية أو الطبيعية - عن نظرية الفلاسفة اليونانيين لها، لأن العلماء المسلمين تكلموا عن المادة أو الطبيعة على أنها من خلق الله سبحانه وتعالى الذي خلق كل شيء وسخر كل شيء.

بعدها يدخل في مسألة العقل أو العقول العدة في التراث الإسلامي مركزاً في نصوصه على نقولات من الإمام الغزالي أكثر من غيره.

* ثم يدخل الباحث في مسألة الفروق الفردية وكيف نظر لها التراث (ويسميها الباحث الفردية)، وينقل نصوصاً منتقاة انتقاءً رائعاً عن مسألة الفروق الفردية بين بني الإنسان.

ويميز الباحث في نظرته إلى الفروق الفردية بين القدرات العقلية وبين مراعاة الميول والطبائع وعلاقتها بتربية وتعليم الأولاد أولاً، وباختيار نوع الصنعة لهم

ثانياً على وفق تلك القدرات العقلية والميول والطبائع التي يمتلكونها.

فمثلاً ينقل الباحث - كمقتطفات من نقوله في بحثه - عن إخوان الصفا قولهم «فالعقلاء متفاوتو الدرجات في عقولهم تفاوتاً بعيداً جداً».

وعن الشيخ الرئيس ابن سينا:

«ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه... ولذلك ينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبي، ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك، فإن اختار له إحدى الصناعات تعرف قدر ميله إليها، وهل أدواته والآته مساعدة له عليها أو خاذلة».

- ويرى الباحث بعد ذلك الإستطراد أن المسلمين - في مجال التربية - نظروا إلى الشخصية (أو الإنسان كما كانوا يسمونها) من خلال محورين، لكل منهما طرفان متقابلان:
  - محور العقل: وطرفاه ذكي وغبي.
  - محور الطبع: وطرفاه متأدب وسافل.

ثم يسرد النقول التراثية بهذا الإطار من الماوردي والشيخ الرئيس ابن سينا والغزالي وغيرهم ليدخل في أوصاف طرفي كل محور من المحورين أعلاه وكيف تعاملوا معهما.

* بعدها يدخل الباحث في الشخصية الإسلامية ليصفها بين موقفين: التصورات من ناحية والممارسات التربوية من ناحية ثانية. ويبدأ الباحث باستعراض الطرائق والأساليب التربوية التي مارسها المسلمون في تكوين وتنمية الشخصية وماذا جنوا من ثمرات تطبيق لتلك الوسائل. ويحدد للتربية مواقع عدة:

- الطفل ابن أسرته.
- التربية في أوساط شعبية.
- تربية خاصة في أسر ميسورة.

- الصبي وتربية الكتاب (الكتاتيب).
- الشباب وتربية المساجد والمدارس.
- الصوفية والتربية ذات البعد الواحد.

وينقد الباحث نقداً جيداً معاصراً لإيجابيات وسلبيات كل موقع من هذه المواقع التربوية ضارباً الأمثلة أو ناقلاً النصوص بشأن كل منها.

* بعدها يدخل الباحث في نظريته في بناء الشخصية، ويقول عنها بنفسه أنها ليست غير تصور ذاتي يقوم على جملة من الأفكار المتماسكة التي نؤمن بها كفلسفة تربوية مستخلصة من خبرة تراثية وعلم حديث. ويضع الباحث الإطار العام لنظريته في الشخصية من خلال أربع بينيات:

الشخصية بين العمومية والفردية

ويرى أن الإسلام النظري لا نرى فيه تعارضاً بين الفرد والأمة

- الشخصية بين المثالية والواقعية

ويرى أننا متى ماربينا الشخصية بحسب طبيعة كل ذات بما يحسن من قدراتها وصفاتها، فإن مثل هذه الشخصية لن تكون إلا واقعية تعيش وتتحرك بإمكاناتها وحدودها الخاصة (ويسميها الباحث الشخصية العينية).

- الشخصية بين السلفية والعصرية

ويقر الباحث بأن الواقع المعاصر الذي نعيشه قد تغير بنا ومن حولنا في كل شئ، ومن ثم فإن الشخصية التي نربيها يجب أن تكون من نبت عصرها ومتكيفة معه، ولكن في إطار إسلامي له فلسفته العصرية التي يمكن أن نواجه بها تحديات الزمن.

- الشخصية بين الدينية والعلمية

ويرى الباحث أن الإسلام يحكم بالعقل ويهتدي به من طرف، ويقدّر العلم ويمشي معه من طرف آخر.

وقد حمل الباحث على كل الذين أرادوا تعطيل وظيفة العقل في الفكر

الإسلامي مدافعاً عن رفع التعارض بين العقل والشرع مستشهداً بابن رشد وابن تيمية.

ثم يضرب مثالاً مطولاً في الشيخ محمد رشيد رضا ومجلته المنار التي كانت مناراً لمثل هذه المواءمة بين الدين والعلم.

* ثم يعود الباحث في ورقته إلى التربية ويرى أن أول خطوة إصلاحها تكمن في تجسيد الوظيفة التربوية للمدرسة، وأن تتقدم التربية على التعليم لأن التربية حياة مدرسية ومجتمعية مخططة ومقومة، والتعليم داخل ضمن عملياتها وأنشطتها ويخدم أهدافها ووظائفها.

ثم يضع الباحث مقترحاته أو سياسته لتربية الأبعاد الثلاثة في الشخصية الإسلامية للتتكامل سوية فاعلة في حياتها العصرية، وهذه الأبعاد هي:

- البعد الفيزيقي في التربية

ويراه الباحث مهملاً في زمننا الحاضر ويقارنه بحضوره الشديد في المدارس الدينية السالفة مستشهداً بابن مسكويه وابن سينا ومدارس دمشق والبُلوي وغيرهم.

- البعد العقلي في التربية

ويرى أن ظاهر مدارسنا المعاصرة تفي بهذا الجانب وناجحة فيه، ولكنه يرى أنها تخاطب العقل وتحشوه بكم هائل من المعلومات يلدها العلم وتفجرها المعرفة، ثم يأخذ على هذا النوع من التعليم.

- البعد النفسي في التربية

ويرى أن هذا البعد قد اسيئ فهمه في تربية الشخصية المسلمة عند جماعات أو مدارس إسلامية، ويأخذ على بعض المدارس الصوفية عندما رأت النفس مجرد رمز للشهوات المذمومة والصفات المهلكة. ويراها - أي النظرة لبعض المدارس الصوفية لحقيقة النفس الإنسانية - غير تربوية ولا تتمشى مع عقيدتنا ونظام حياتنا وأساليب تربيتنا. ثم يضرب أمثلة أخرى على مدارس صوفية خرجت من هذا الثوب لتلبس ثوباً صوفياً اجتماعياً على درجة كبيرة من السمو

والسماحة مشبعة بالحب والعطف والرحمة للإنسان في وضعه الهش وطبيعته الخطاءة.

ويضرب أمثلة على ذلك بأبي يزيد البسطامي وبالشيخ أحمد الغزالي (شقيق الإمام أبو حامد الغزالي) الذي كان يؤمن بقول سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه «والله لو رأيت مسلماً على فاحشة لسترته بثوبي».

* ثم يستعرض الباحث في آخر ورقته علاقة الشخصية بالتربية الدينية ويرى أن علينا التمييز بين التربية الدينية والتعليم الديني، لأن التربية مادة سلوك وتكوينية لا تلقينية وأنها تنشأ في وسط اجتماعي متفاعل. ثم ينتقل إلى علاقة الشخصية بالتربية الاجتماعية حيث يرى أن التربية الإسلامية يجب أن تمارس في إطار اجتماعي يعمل على التلاحم القومي والتماسك الوطني والتجانس الثقافي والتسامح الإنساني. وبعدها يتكلم عن علاقة الشخصية بالتربية السياسية ليخرج بخلاصة مؤداها أن أيديولوجيا النمو والمذاهب والفرق الإسلامية السلفية يجب أن تتحول اليوم إلى أيديولوجيا تصالحية لا تصارعية، مجمّعة لا مفرقة، توظف الدين لكل المسلمين وصالحة في خدمة الحياة وترقية المجتمع.

* وأخيراً يتساءل الباحث في ورقته: «هل النموذج شخصية أم مسلك تربوي؟».

ويرى الباحث أن الإنسان ليس منتجاً يصنع في عالم الأشياء ويخرج بمواصفات مطلوبة خاضعة للتوحيد القياسي ومنتظمة تماماً مع وسائل التقنين الكمي الذي يسوي بالتفصيل بين مفردات الأشياء التي تخرج من قالب تشكيلي واحد. ويرى أن «النموذج» ألصق بالمسلك التربوي وليس بالشخصية، فالمسالك نماذج بحسب فلسفات المجتمعات وما يكون لها من نظم سياسية وخصوصيات ثقافية.

ثم يحدد الباحث نموذج المسلم التربوي لشخصية إسلامية:

- تعيش في عصرها.
- تؤمن بدينها.

- تعمل لحياتها.

مثل هذا المسلك، كما يراه الباحث، يقدم تربية شاملة لجماع الذات الإنسانية: عقلاً ونفساً ويداً وجسماً، بصفته فرداً يعيش حياته الخاصة، وبصفته مواطناً يتفاعل مع آخرين يشاركونه الحياة في مجتمعه وفق منظومة من القيم والحياة.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

الشخصية، بناء الشخصية المسلمة، أسلمة نظريات الشخصية، التربية الإسلامية.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

* في استعراض الباحث لنظريات الشخصية أو منظورات الشخصية في علم النفس المعاصر، وبصفته رجل غير صاحب اختصاص مباشر في علم النفس لم يوفق - برأيي- في ذلك العرض ولا المقارنات التي أجراها في هذا الاتجاه، رغم أنه كان ينقل نصوصاً من غيره (أي من كتب ومصادر نفسية) إلا أن التعشيق بين هذه النقولات لم تكن منسجمة متسقة.

* من الجهة الأخرى كان الباحث موفقاً جداً في نقل النصوص التراثية وقادر على سبرها والتقاط المناسب منها لمرئيات الباحث التي حاول أن يطرحها في ورقته.

* كان موضوعياً جيداً عند محاولته الوقوف بين التراث والمعاصرة، فاعطى كل ذي حق حقه، حتى وإن كانت من وجهة نظر الباحث نفسه.

* المسألة الرئيسة تقع في محاولة الباحث لتأطير ملامح الشخصية المسلمة وجعلها في بينيات أربع، إلا أن أساس أزمة علم النفس المعاصر في الشخصية تتكلم عن بينيات أخرى لا بد لنا نحن علماء النفس المسلمون أن نقطع فيها

وخاصة: مسألة الجبر والإختيار، ومسألة الوراثة مقابل البيئة (الطبع والتطبع). الشعور واللاشعور، الفروق الفردية والخصائص الإنسانية العامة .....الخ. إنها مسائل أثيرت منذ قرون وعصفت بها الفلسفات المتباينة ومن ثم منظورات علم النفس المعاصرة. وهي بحاجة ماسة إلى موقف أيديولوجي يجيب عن هذه التساؤلات، أو قادر على أن يحل مثل هذه الازمات. ولا أعتقد أن غير الدين الإسلامي قادر على حلها أو الفصل بينهما في الأقل. وهنا سنخدم حتى علم المفس المعاصر الغربي إذا ما تقدمنا له بإطار نظري منطقي تدل عليه شواهد وملاحظات بحثية علمية رصينة.